بين ابن فارس والثعالبي

إعداد الدكتور/ حسن سيد فرغلي
المدرس بقسم أصول اللغة بالكلية

التشابه بين آراء الكتاب في العصور المختلفة كثير ، والصلات العلمية بينهم مستمرة عن طريق الترجمة ، أو التقليد ؛ أو الانتاج الشخصي الذي تظهر فيه أنواع التأثر .

والتأثر بين الكتاب قد يكون في الأفكار والموضوعات ؛ أو في الناحية الفنية من الصياغة والأسلوب ، أو في المنهج والطريقة التي يتبعها الكاتب أو المصنف الى غير ذلك من ضروب التشابه والتوافق ومظهر هذا التأثر هو التشابه بين نصين لكاتبين مختلفين تشابها لا يكون الباعث عليه غير التأثر الفكري الناشيء عن تبادل الصلات التاريخية .

والتشابه بين النصين قد يكون محاكاة في الأفكار ، وقد يكون استلهاما لروح النص المؤثر .

وعند وجود هذا التشابه يجب البحث عن الصلات التاريخية بين النصين : كأن يوجد نص صريح من كاتب يعترف فيه بتأثره بانتاج كانت آخر من كتاب لغة أخرى ، وان لم يوجد مثل هذا النص نلجأ الى البحث في تاريخ كتابة النصين وفي القرائن الأخرى التي تثبت الصلة التاريخية ، فاذا لم توجد صلة تاريخية بين النصين المختلفين

انتفى التأثر والدراسة المقارنة ، اذ ربما كان التشابه مبعثه أفكار العصر العامة أو ملابسات متشابهة ، أو المصادفة المحضة(١) .

وعلى ذلك : فليس من السهل ونحن نبحث قضية التأثير والتأثر بين هذين العالمين — أعنى ابن فارس (ت ٣٩٥) والثعالبى(ت٤٣٠هـ) — أن نصل الى نتائج قطعية حاسمة ، لأن مشكلة التأثير والتأثر من المشكلات الشائكة التى يصعب علاجها ، وخصوصا اذا كانت تتناول موضوعا مضى عليه عشرات السنين .

ويجب أولا وقبل أن نبدأ دراستنا لهذه القضية أن ننبه الى أمرين :

١ — أنه لا يصح — حين يجد الباحث تشابها بين عملين — أن يقول على مجرد السبق الزمنى ويتخذه دليلا على تأثير السابق فى اللاحق .

فالعقل البشرى هو العقل البشرى فى أى بقعة من أنحاء العالم . وما يهتدى اليه المرء فى بلد قد يهتدى اليه آخر فى بلد آخر دون أن يطلع على ما انتهى اليه غيره ، وقد يتشابه العملان أو يتطابقان ويظل كل منهما أصلا فى ذاته .

٢ — أن كثيرا من الأحكام التى أطلقت حول قضية التأثير والتأثر قد أثبتت الأيام خطأها ، أو على الأقل قدمت ما يشكك فيها .

---

(١) دراسات فى الأدب المقارن د. محمد عبد المنعم خفاجى ج ٢ ص ٨٩ « بتصرف » ، مطبعة دار الطباعة المحمدية بمصر من دون تاريخ طبع

ومن ذلك ما كان يظن من أسبقية الهنود فى علم الفلك(٢) وقد قال « غوستاف لوبون » فى ذلك : « ما كان يقال حول قدم علم الفلك الهندوسى ودقته من الأفكار ، قد أهمل تجاه الدراسات الدقيقة ، فأصبحت هذه الأفكار غير جديرة بعناية أحد »(٣) .

بل أكثر من هذا يرى غوستاف لوبون : أن القضية بالعكس ، وأن هناك قسما كبيرا من المعارف العلمية قد نقله المسلمون الى الهند أو الصين ، ثم عده الأوربيون فيما بعد من أصل هندوسى أو صينى(٤) .

ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) ينكر التأثر بلغات أخرى :

حين تعرض ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) للحديث عن اللغة نراه يقول بتوقيف اللغة الا أنه ينكر تطورها عن طريق التأثر بلغات أخرى فالعربية فى رأيه لا يمكن أن تكون قد تطورت عن طريق الاحتكاك بلغة أخرى ، حتى انه يفسر وجود كلمات قال عنها العلماء انها غير عربية بأن الأمر كله لا يعدو أن يكون تشابها بين العربية وغيرها ، أو أن اللغات الأخرى هى التى أخذت هذه الكلمات عن العربية

---

(٢) البحث اللغوى عند العرب د. أحمد مختار عمر ص ٣٤١ . الطبعة السادسة طبعة سنة ١٩٨٨م . مطبعة عالم الكتب بيروت .

(٣) حضارة الهند لفوستاف لوبون ترجمة عادل زعيتر ص ٥٦٤ طبعة سنة ١٩٤٨م .

(٤) حضارة العرب لفوستاف لوبون ترجمة عادل زعيتر ص ٥٦٤ طبعة سنة ١٩٤٨م .

فيقول(٥) : « فأما قولنا انه ليس فى كتاب الله تعالى شىء بغير لغة العرب فلقوله تعالى : « انا جعلناه قرآنا عربيا ... » (٦) وادعى ناس أن فى القرآن الكريم ما ليس بلغة العرب حتى ذكروا لغة الروم والقبط والنبط ، فحدثنى أبو الحسن محمد بن هارون .

قال : أخبرنا على بن عبد العزيز عن على بن المغيرة الأثرم قال :

قال أبو عبيدة : انما أنزل القرآن بلسان عربى مبين ، فمن زعم أن فيه غير العربية فقد أعظم القول ، ومن زعم أن كذا بالنبطية فقد أكبر القول .

قال : وقد يوافق اللفظ اللفظ ويفارقه ومعناهما واحد ، وأحدهما بالعربية والآخر بالفارسية ، أو غيرها .

قال : فمن ذلك الاستبرق بالعربية ، وهو الغليظ من الديباج ، والفرد : وهو استبره بالفارسية .

قال : وأهل مكة يسمون المسح(٧) الذى يجعل فيه أصحاب الطعام البر البلاس ، وهو بالفارسية : بلاس ، فأملوها وأعربوها فقاربت الفارسية العربية فى اللفظ والمعنى .

ثم قال : وذلك كله من لغات العرب وان وافقه فى لفظه ومعناه شىء من غير لغاتهم .

---

(٥) فقه اللغة فى الكتب العربية د. عبده الراجحى ص ١٠٤ مطبعة دار النهضة الحديثة ـ بيروت . طبعة سنة ١٩٧٢م

(٦) من الآية ٣ من سورة الزخرف .

(٧) المسح : الكساء من الشعر . اللسان (مسح) .

وهذا كما قاله أبو عبيدة ، وقول سائر أهل اللغة ، انه دخل في كلام العرب ما ليس من لغاتهم ، فعلى هذا التأويل الذى تأوله أبو عبيدة(٨) .

الثعالبى يقرر مبدأ التأثر :

اذا كان ابن فارس — كما بينا — قد أنكر تأثر اللغة بلغات أخرى مع اذعانه بتطورها ، الا أن الثعالبى (ت ٤٣٠ هـ) يقرر مبدأ الأخذ عن لغة أخرى ، فيذكر ألفاظا دخلت العربية والفارسية والرومية(٩) وذلك فى قوله : « فصل فى سياقه أسماء تفردت بها الفرس دون العرب ، فاضطرت العرب الى تعريبها أو تركها كما هى ، فمنها الأوانى : الكوز ، الابريق ، الطست الخوان ، الطبق ، ..... وفصل فيما حاضرت به مما نسبه بعض الأئمة الى اللغة الرومية : الفردوس ، البستان ، القسطاس ، الميزان ، السجنجل : المرآة ، البطاقة : رقعة فيها رقم المتاع(١٠) .

واذا كنا قد بينا موقف ابن فارس من تأثر لغة بأخرى ، وكذا موقف الثعالبى ، فانه بقى علينا أن نبين مدى موافقة الثعالبى (ت ٤٣٠هـ) فى كتابه « فقه اللغة وأسرار العربية » لما جاء فى كتاب « الصاحبى » لابن فارس (ت ٣٩٥هـ) هل أخذ الثعالبى

---

(٨) الصاحبى لابن فارس تحقيق / السيد أحمد صقر ص ٤٣ — ٤٤ مطبعة عيسى البابى الحلبى . طبعة سنة ١٩٧٧م .

(٩) فقه اللغة د. عبده الراجحى ص ١٠٥ .

(١٠) فقه اللغة وأسرار العربية للثعالبى ص ١٤٥ ، ١٤٦ منشورات مكتبة الحياة بيروت من دون تاريخ طبع .

« أسرار العربية » من « الصاحبي » واعتمد عليه اعتمادا كاملا دون غيره ؟ أم أن هذا يمثل لونا من التأثر الفكرى الناشىء عن تبادل الصلات التاريخية ، بالاضافة الى التوافق فى الطريقة والمنهج بينهما، وقد عده بعض الباحثين من سمات التأثير والتأثر ؟

هذا ما سنبينه فى هذا البحث المتواضع ، مع التعرض بالشرح والدراسة لمنهج كل من الكتابين ، ، شرحا يزيل الابهام ويوضح الغموض ، وكذا عقد موازنة بينهما : فنقول وبالله التوفيق :

كتاب « الصاحبى فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها » :

صاحب هذا الكتاب هو أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا ابن محمد ابن حبيب المعروف والمشهور بابن فارس(١١) (ت ٣٩٥ هـ) .

وكتاب « الصاحبى » لابن فارس هو أول مؤلف فى العربية يحمل عنوانه (فقه اللغة) وهو آخر ما ألف ابن فارس من مؤلفات وقد ألفه بالمحمدية سنة ٣٨٢هـ أى قبيل وفاته بثلاث عشرة سنة ولقد سمى ابن فارس كتابه « بالصاحبى » حيث انه أودعه خزانة الصاحب اسماعيل بن عباد ، ولقد أراد ابن فارس بكتابه هذا أن يبين لنا أسرار العربية وعبقريتها ، وطرق وسائل التعبير عند العرب ،

---

(١١) انباه الرواة على أنباه النحاة للقفطى تحقيق / محمد أبوالفضل ابراهيم ١/٩٥ مطبعة دار الكتب المصرية ط سنة ١٩٥٢م . ومعجم الأدباء لياقوت الحموى ٤/٨٩ مطبعة دار المأمون بمصر . ط . سنة ٩١٩٣٦ وغيرهما .

ولذلك سمى كتابه « الصاحبى فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها »(١٢) ..

منهج المؤلف فيه : ـ

كتاب « الصاحبى » لابن فارس عبارة عن مجموعة من الرسائل فى موضوعات مختلفة لفقه اللغة ، وعلى ما يبدو أن ابن فارس قد جمع عددا من رسائله الصغيرة فألف منها كتابا مع الاختصار أو التوسع ، ولقد نهج هذا المنهج كثير من علماء اللغة المحدثين فاطلقوا هذا الاسم على كتبهم ومؤلفاتهم التى تتناول مباحث علم اللغة . ومع قيمة الكتاب العلمية ، وقيمة ما تضمنه من أفكار وأساليب ومعلومات ، الا أن صاحبه يعلن فى تواضع العلماء أن موضوعات كتابه انما هى ما تفرق من مؤلفات العلماء المتقدمين ، فلا يدعى أن موضوعات كتابه مبتكرة ، أو أنها جديدة لم يسبق بها ، وانما يبين ويعترف فيه بأنه لا فضل له فيه الا جمع متفرق أو شرح مشكل ، أو بسط مختصر أو اختصار مبسوط .

ويرى ابن فارس أن علم العربية ينقسم الى قسمين : ـ
قسم فرعى : يختص ويهتم بالكلمات أو المفردات .

وقسم أصلى أساسى : موضوعه النحو والصرف ، وفقه اللغة والبلاغة والبيان(١٣) .... ألخ .

---

(١٢) فى فقه اللغة د. أحمد محمد سلامة ص ٧٠ الطبعة الأولى سنة ١٩٨٨م .

(١٣) راجع الصاحبى / لأحمد بن فارس ص٣ « المقدمة » .

ولأن ابن فارس فقيه لغوى ، فقد اهتم ببيان سنن العـــرب فى كلامها ، كما اهتم فى نفس الوقت بابراز حقيقة حـرص على بيانها ، وهى أن القرآن الكريم جـاء على سنن العرب ، وكان هـذا أحـد أهدافه الأساسية من تأليف كتابه ، ولذلك فقد أكثر من ايراد الشواهد القرآنية فى كتابه التى تعين على فهم القرآن والسنة ، ولذلـك نرى ابن فارس ينهج نهج العرب مؤيدا لطرائقهم فى التعبير ، ولعل هـذا يرجع الى اهتمامات ابن فارس ، فقد كان لغويا فقيها •

ويمكننا أن نقسم كتاب ابن فارس « الصـاحبى » الى اربعـة أقسام نتباين فيها بينها فى الأهمية والطول حسب الموضوعات والبحوث التى يتناولهـا •

القسم الأول : ويتناول موضوعات عامة متصلة باللغة العربية من ذلك الكلام فى نشأة اللغة : هل هى توقيفية أو اصطلاحية ؟ الفصيح من اللغات وقبيحها ومدى الاختـلاف بينهـا ، وتطور اللغة بمجىء الاسلام ، وموت كلمات وحياة أخرى ، وغموض بعضها لطول العهـد به حتى أصبح مشكلا لا سبيل الى القطع فيه برأى بعد أن مات منها الذى يعرفه ، ومن ظهور لغـات شاذة مرغوب عنها ، وبعض العوامل التى أثرت فى هذه الأحوال كطول العهد بها ، وتوزع القبائل(١٤) •

وتقع هذه الطائفة فى أول الكتاب وتشمل أبواب :

القول على لغة العرب أتوقيف أم اصـطلاح ؟ القول على الخط

---

(١٤) فقه العربية سمهيد فى التاريخ والتأليف د• محمد أحمد خاطر ص ٣٣ الطبعة الأولى سنة ١٩٨٢م مطبعة دار الطباعة المحمدية بمصر• وفى فقه اللغة د• أحمد محمد سلامة ص ٧٢ •

العربى وأول من كتب به • القول فى اختلاف لغات العرب • القول فى أفصح العرب ، اللغات المذمومة ــ لغة القرآن الكريم • القول على أن لغة العرب لم تنته الينا بكليتها ــ انتهاء الاختلاف فى اللغات • مراتب الكلام فى وضوحه واشكاله • الأسباب الاسلامية • باب آخر فى الأسماء •

القسم الثانى : يتناول مباحث نحوية وصرفية وصوتية ، وينصب على دراسة الحروف وعللها وزيادتها ••• الخ ، وحروف المعانى ومعانيها ووجوهها •

فبماحث النحو : تتركز فى وسط الكتاب مستغرقة ثلاثة تقريبا بدء من باب الحروف حيث قال : « هذا باب يصلح فى أبواب العربية •• وانتهاء بمبحث « يا » وتناول فى ذلك الحروف المفردة التى تتكون من حرف واحد ، ومنها يختلط النحو والصرف ، غير المفردة التى تتكون من حرفين أو أكثر ، وقد رتبها هجائيا بحسب الحرف الأول ، وسرد وظائفها النحوية فى ايجاز ، مستشهدا بالقرآن الكريم أولا ما وجد شاهدا ، وبالشعر فى المرتبة الثانية ، ولا يذهب لأكثر من هذا من تعرض لوجوه الاعراب واختلاف الآراء ونقدها ، وترجيح بعضها على بعض وما للحرف من أحكام وما الى ذلك(١٥) •

واشتملت مباحث الحروف على أفعال مثل « عسى » ، « كاد » ، « ليس » • وعلى أسماء مبنية مثل : ذو ، وذات ، وأين ، وأيان ، وأنى •

---

(١٥) فقه اللغة د• محمد أحمد خاطر ص ٣٤ •

وعلى أسماء معربة مثل : رويد ، وعوض ، وعيز •

وعلى أسماء أفعال مثل : شتان ، ومه ، وهيهات ، ووى ، كل هذه أدرجها تحت « حروف المعانى » متأثرا فى ذلك بالأصوليين وبقول قائلهم فى هذا :

« يحتاج الفقيه الى معرفة معانيها ، لكثرة وقوعها فى الأدلة ، اكن سيأتى منها أسماء ، ففى التعبير بها تغليب للأكثر ، أو يراد بالحروف الأدوات أو الكلمات مطلقا(١٦) •••

والى جانب هذه الطائفة المجتمعة المترابطة نجد أبوابا متناثرة فى سائر الكتاب ، ففى أوائله نجد : القول فى حقيقة الكلام — أقسام الكلام — الفعل — الحرف — النعت • وفى أواخره نجد : اضافة الشىء الى ما ليس له ، اضافة الشىء الى نفسه — الحمل (تأنيث المذكر والعكس) •

وهناك أبواب نحوية أدخلها تحت سنن العرب ، وصدرها بالعبارة الدالة على ذلك وهى : القبض — الاضما — اضمار الحروف — اضمار الأفعال — التعويض — اضافة الفعل (المصدر) الى من وقع به ذلك الفعل ، ما يجرى من غير ابن آدم مجرى ابن آدم فى الاخبار عنه — الكف •

وفى هذه جميعا كان يعرف بموضوع الباب ، ويستشهد عليه من القرآن الكريم والشعر فى ايجاز بلا تفصل ولا تطويل(١٧) •

---

(١٦) شرح المحلى على جمع الجوامع وحاشية البنانى عليه ١/٢٣٥ مطبعة عيسى البابى الحلبى بمصر •

(١٧) فقه اللغة د• محمد أحمد خاطر ص ٣٤ •

مباحث الصرف :

قال عنه فى باب الخطاب الذي يقع به الافهام من القائل والفهم من السامع : وأما التصريف فان من فاته علمه فاته المعظم لأنا نقول: « وجد » وهى كلمة مبهمة ، فاذا صرفنا أفصحت فقلنا فى المال : وجدا ، وفى الضالة : وجدانا ، وفى الغضب « موجدة » وفى الحزن : وجدا ، ومن ذلك قوله تعالى « وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا »

وقال : « وأقسطوا ان الله يحب المقسطين » .. فانظر كيف تحول المعنى بالتصريف من العدل الى الجور .

ويكون ذلك فى الأسماء والأفعال ، فيقولون للطريقة فى الرمل « خبة » وللأرض المخصبة والمجدبة «خبة»(١٨) .

وفى باب الحروف المفردة بحوث صرفية من ابدال أو اعلال أو زيادة أو لغة من اللغات ذكرها ، وما كان غير ذلك قال : لا أعرف لها علة .

فبعد : أ . ب . ت يقول : وأما الثاء فلا أعرف لها علة ، وتقع زائدة ، وكذلك الجيم الا فى الذى ذكرناه من اللغات المستكرهة ، والحاء والخاء لا أعرف لها علة ، والدال لا علة لها ، الا فى لغة من يقلب التاء دالا(١٩) .

---

(١٨) الصاحبى لابن فارس ص ٣١٠ ـ ٣١١ .

(١٩) المرجع السابق ص ١٣٩ ـ ١٤٠ .

الأصـــوات :

أما الأصوات فلم يعرض لها عرضا مستقلا ، ويمكن أن نجـد فى بـاب الحروف حيث تناول حروف الهجاء ما يدخـــل فى نطـــاق «الفونولوجى» — وهو يقوم على دراسة مواقع الأصوات فى الكلمات فى حد ذاتها وعرف هذا الاتجاه باسم (الفونولوجيـا) أو الدراســة التنظيمية أو علم وظائف الأصـــوات وهو يدرس الأصوات من حيث وظائفها فى الاستعمال اللغوى(٢٠) — أو ما يمكن تسميته « الحروف » من حيث أحوالها فى الكلام من أصـــالة وزيـــادة ، وابدال ومواضـــع ذلـــك .

ولم يأت من حديث يدخل فى نطاق الأصوات : الا هذه الاشارة العابرة فى باب الباء حيث قال : « الباء من حـــروف الشفة ، ولـــذلك لا تأتلف مع الفـــاء والميم : أما الفـــاء فلا تقـــارنها باء متقدمـــة ولا متأخـــرة .

أما الميم فلا تتقدم على الباء ملاصقة لها بوجه ؛ ومتأخرة كـــذلك الا فى قولنا : « شبم »(٢١) ، وقد يدخـــل بينهـــما دخيل فى مثـــل « عبام »(٢٢) و « شـــبام »(٢٣) وهى على الأحوال يقل تألفهـــما معهـــا (٢٤) .

---

(٢٠) أصوات اللغة العربية د. عبد الغفار حامد هلال ص ٨ مطبعة الجبلاوى بمصر الطبعة الثانية سنة ١٩٨٨م .

(٢١) الشبم بالكسر : البارد (المصباح المنير للفيومى ٣٠٢/١ (شبم)

(٢٢) العبام والعباماء : الغليظ الخلقة فى خمق ، وقيل : هو القيئ الأحمق .

(٢٣) شبام : حى من اليمن (اللسان شبم) .

(٢٤) الصاحبى ١٣١ .

فالأحرف الشفهية أو الشفوية : وهي الفاء والباء والميم والواو غير المديه ، وسميت بذلك لأن مبدأها من الشفة ، غير أن الفاء مما بين باطن الشفة السفلى ورأس الثنيتين والثلاث الباقية مما بين الشفتين معـا (٢٥) .

فالجملة الأولى فقط صوتية تحدد مخرج الباء ، ونعلم مما يليها مخرج الفاء والميم ، وما عدا ذلك يتناول الحرف .

اللغة والـدلالة :

ونقصد باللغة ما يتصل بالعلاقة بين اللفظ المفرد والمعنى تطبيقا، وبالدلالة ما يتصل بذلك بحثا ، وما يدور حول دلالة التراكيب خـارج مباحث البلاغة ويشمل ذلك : التضاد ، والترادف ، والاشـتراك ، وما يعرض للفظ من عموم أو خصوص ، واطلاق أو تقييد ، وما يكون من ذكر لمعانى الفاظ ، ووسائل العربية الى البيان والدلالة ، وذلـك فى أبواب : أجناس الأسماء ، ما جرى مجرى الأسماء وانما هى الألقاب، الأسماء كيف تقع على المسميات ، الخطاب الذى يقع به الافهـام من القائل والفهم من السامع ، القـول فى أصول أسماء قيس عليها والحق بها غيرها ، الأسماء التى لا تكون الا باجتماع صفات وأقلها ثنتان ، الخطاب الذى يأتى بلفظ المذكر أو لجماعة الذكران ، أقل العدد الجمع، معانى ألفاظ العبارات التى يعبر بها عن الأشـياء ، معنى الحقيقـة والمجاز ، الخطاب المطلق والمقيد ، أجنـاس الكـلام فى الاتفـاق والافتراق ، العموم والخصوص ، الفعل الـلازم والمتعدى بلفظ ، الفرق بين الضدين بحرف أو بحركة ، الواحد يراد به الجمع ، الجمع

---

(٢٥) أصوات اللغة د. عبد الغفار ص ١٥٥ .

يراد به الواحد واثنان ، نظم العرب لا يقوله غيرهم • الإتبـاع ـ النحت(٢٦) •

القسم الثالث : خاص بالتراكيب وطرائق التعبير • وهذه الأبواب تتصل اتصالا وثيقا بالنحو من جهة ، وبالبلاغة من البيان من جهـة أخرى ، ويمكن أن يطلق على مباحث هذا القسم اسم : (عبقريـة عربية)(٢٧) •

وتتوزع المبحث جميعا على علوم البلاغة الثلاثة. فمن السنن فى علم المعانى : مخالفة ظاهر اللفظ معناه (فى باب سنن العرب فى حقـائق الكلام والمجـاز) ـ القلب ـ التكرار ـ التقـديم ـ والتأخير ـ الاعتراض ـ الحذف والاختصار والايهام ـ ما يجرى من غير ابن آدم مجرى ابن آدم فى الاخبار عنه ـ الحذف والاختصار ـ اقتصـارهم على بعض الشىء وهم يريدونه كلـه ـ التعويض ـ وصف الشىء بما يقع فيه أو يكون منه ـ التوهم والايهام ـ الايماء •

فى المعانى : الزيـادة ـ نسبة الفعل الى أحد اثنين وهو لهما ـ باب من الاضمار آخر ـ وصف الجمع بصفة الواحد ووصف الواحد بلفظ الجميع(٢٨) ـ تذكر جماعة وجماعة أو جماعـة وواحـدا ثـم تخبر عنهما بلفظ الاثنين ـ مخاطبة الواحد خطاب الجمع اذا أريـد بالخطاب هو ومن معه ـ تحويل الخطاب من الشاهـد الى الغائب ـ تحويل الخطاب من الغائب الى الشـاهد مخاطبة المخاطب ثم يجعـل الخطاب لغيره(وهذه الثلاثة يشملها الالتفاف وهو يبحث فى المعـانى وفى البديع) ـ الاشباع والتأكد •

---

(٢٦) المرجع السابق ص ٣٦ •

(٢٧) فى فقه اللغة د• أحمد محمد سلامة ص ٧٢ •

(٢٨) فقه اللغة د• محمد أحمد خاطر ص ٣٧ •

وفى علم المعانى : ــ الاعارة ــ نسبة الفعل الى اثنين وهو لأحدهما ــ نسبة الفعل الى جماعة وهو لواحد منهم ــ أمر الواحد بلفظ الاثنين الفعل يأتى بلفظ الفاعل ــ ما يجرى فى كلامهم مجرى التكلم والهزء ــ نفى الشىء جملة من أجل عدم كمال صفته ــ الكناية ــ نفى فى ضمنه اثبات(٢٩) .

وفى البديع : ــ اخراجهم الشىء المحمود بلفظ يوهم غير ذلك ــ الافراط ــ الاستقرار ــ المحاذاة ــ جمع شيئين فى الأبتداء بهما وجمع خبريهما ثم يرد الى كل كلام مبتدأ به خبره .

القسم الرابع : خاص بالشعر وهذا القسم فى غاية الايجاز .

تعقيب :

بعد هذه السياحة العلمية مع كتاب « الصاحبى » لابن فارس يمكننا القول : ان كتاب « الصاحبى » من كتب التقاءه اللغوية العامة، ولذلك فقد أدرك السيوطى (ت ٩١١هـ) هذه الحقيقة ، وقدر لابن فارس (ت ٣٩٥هـ) عمله فى كتابه حق قدره ووصفه فى موصفه اللائق به .

ولذلك لم يجد السيوطى لكتابه « المزهر » مقدمة أفضل من مقدمة ابن فارس لكتابه « الصاحبى » فنقلها بنصها ، وحذافيرها(٣٠) ، كما نهج نهجه ، فنقل معظم أبواب « الصاحبى » فجاءت منثورة فى كتابه « المزهر » ، وعلى أى حال فكتاب « الصاحبى » يعد أول كتاب يقدم الينا لونا من التأليف فى فقه اللغة .

---

(٢٩) ارجع السابق ص ٣٨ .

فالكتاب قد اشتمل على عدة صنوف وفنون :

فالثلث الأول منه يتضمن الحديث عن فقه اللغة ، ويدور فى معظمه حول نشأة اللغة وحياتها وتطورها ، وما يحدث لها فى أثناء ذلك ، ما يؤثر فيها من عوامل .

والثلث الأوسط منه يكاد يخلص لمباحث النحو والصرف ، وابن فارس واع بأنها تصلح فى أبواب العربية ، وانما عرض لها ذكرها فى كتابه تبعا لعلماء أصول الفقه ، دون أن يدرى الوجه فى اختاصهم بعضها دون بعض ، فهو اذن غير مطمئن بأنها تقع فى مجال دراسته لولا الاتباع والتقليد ، وهذا القسم من الدراسة اذن لا هو من فقه اللغة ولا هو من سنن العرب ، وقياسا نلحق بذلك ما يدخل فى مباحث النحو والصرف فى سائر الكتاب فكأنه يصلح فى أبواب العربية .

أما الثلث الأخير : فيكاد يكون مقصورا على السنن ، وان كان قد استعمل هذه العبارة قبل ذلك نادرا مثل قوله : « ومن سنن العرب أن يسموا المتضادين باسم واحد » ، ومن سنن العرب الزيادة فى حروف الأسم ، وان معظم هذه السنن واقع فى علوم البلاغة .

وهكذا يمكن تصور الهيكل العام للكتاب ، على أنه من الواضح أن معظم مسائله متداخل تداخلا شديدا بحيث يصعب فصل كل موضوع

---

(٣٠) راجع مقدمة المزهر للسيوطى تحقيق / محمد على البجاوى وآخرين ١/٤ ، ٥ مطبعة عيسى البابى بمصر ـ مقارنة بمقدمة لصاحبى لابن فارس ص ٣ .

عن الآخر ، وتلك كانت سمعة العصر التي تميز منهج القدماء في التأليف أو فقدان المنهج كما يقولون(٣١) .

الثعالبي وكتابه فقه اللغة :

أما الكتاب الثاني فهو كتاب أبي منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي النيسابوري ، ولقب بالثعالبي ، لأنه كان يخيط جلود الثعالب ويصنعها فكان فراء ، وعلى ما يبدو أنه كان يؤدي هذا العمل بجانب عمله مؤدبا للصبيان والغلمان في كتاب ، فلم تكن صنعة يتعيش بها أو منها أو يحيا لأجلها ، بل كانت من الأعمال التي يقوم بها المعلمون والمؤدبون في الكتاتيب وهم يقومون بالتعليم والتأديب ، كما يلقب بالنيسابوري لاقامته بنسابور ، وكان يعرف بحافظ نيسابور ، ولد الثعالبي سنة ٣٥٠هـ ، وتوفي سنة ٤٢٩ وقيل ٤٣٠هـ أي أنه عاش نحو ثمانين سنة . ولقد ترك وراءه ما يزيد على الثمانين مؤلفا(٣٢) . من بينها ذلك المؤلف اللغوي الكبير أي «فقه اللغة وأسرار العربية»، وقد وصفناه بهذا الترتيب وان كان متأخرا من الناحية الزمنية عن كتاب ابن جني ، ولأنه يحمل عنوان « فقه اللغة » الذي اتخذه ابن فارس ، ولأنه اعتمد على ابن فارس في كثير من المواضع على ما يظهر من هذا العرض .

---

(٣١) دراسات في اللغة : القسم الثاني د. كمال بشر ص ٥٢ مطبعة دار المعارف سنة ١٩٦٩ .

(٣٢) راجع المؤلفات التالية : انباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم ١/٩٥ مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٥٢م .

وكما قدم ابن فارس كتابه الى الصاحب بن عباد ؛ قدم الثعالبى كتابه الى الأمير أبى الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالى (ت ٤٣٦هـ) الذى أفرد جزءا كبيرا من مقدمة الكتاب لمدحه ، والثعالبى يذكر أن صحبته لأبى الفضل هى التى أوحت اليه بمـــادة الكتاب كمـــا أن أبـــا الفضل هو الذى اختار له عنوانه ، وان كنا نحن نرجح أنه كان ينظر فيه الى عنوان كتاب ابن فارس الذى ذكـــره فى مقدمته بين من ذكرهم من علماء العربية الذين رجع اليهم وأفـــاد من أعمالهم(٣٣) يقول : « وقد كانت تجرى فى مجلسه آنسه الله نكت .... الى قوله: « وكسر دفتر جامع عليها واعطائها من التفقه حقها »(٣٤) .

ثم يقول : « وقد أخذت لترجمته ما اختاره أدام الله توفيقه من فقـــه اللغة وشفعته بسر العربية ليكون اسما ليوافق مســـماه ، ونفظـــا يطـــابق معنـــاه »(٣٥) .

والغاية من تأليف الكتاب هى نفسها الغاية التى ذكرها ابن فارس ويذكرها كل من يتصدى للدرس اللغوى للعربية، وهى خدمة النص فى القرآن توصلا الى فهم أحكامه فهو يقول :

ومعجم الأدباء لياقوت الحموى ٤/٨٩ ، ٩٠ ، ٩٨ مطبعة دار المأمون بمصر سنة ١٩٣٦م .

يتيمة الدهر فى محاســن أهل العصر للثعـالبى تحقيق / محمـد محيى الدين عبد الحميد ص ٤/٤٠٠ .

(٣٣) فقه اللغة العربية د. عبد الراجحى ص ٤٧ .

(٣٤) فقه اللغة وأسرار العربية للثعالبى ص ٦ ، ٧ .

« أما بعد : حمدا لله على آلائه ، والصلاة والسلام على محمد وآله فان من أحب الله أحب رسوله المصطفى ﷺ • ومن أحب النبى العربى أحب العرب ، ومن أحب العرب أحب اللغة العربية التى بها نزل أفضل الكتب • على أفضل العجم والعرب ، ومن أحب العربية عنى بها وثابر عليها • وصرف همته اليها ، ومن هداه الله للاسلام • وشرح صدره للايمان • وآتاه حسن سريرة » فيه •

اعتقد أن محمدا ﷺ خير الرسل • والاسلام خير الملل • والعرب خير الأمم • والعربية خير اللغات والألسنة • والاقبال على تفهمها من الديانة • اذهى أداة العلم • ومفتاح التفقه فى الدين • وسبب اصلاح المعاش والمعاد(٣٦) •• الخ •

منهج الثعالبى فى كتابه :

من النظرة العامة الى الموضوعات التى تناولها الثعالبى فى كتابه « فقه اللغة وأسرار العربية » نجده قد قسم الكتاب الى قسمين :

الأول : ــ

فقه اللغة ، ويعد هذا القسم من الكتاب معجما صغيرا من المعجمات المبوبة كما سماها ابن سيده(٣٧) (ت ٤٥٨هـ) أو معجمات المعانى أو الموضوعات ، وفيها تحشد المادة اللغوية وتفسرا وأكثرها مرتبة

---

(٣٥) المرجع نفسه ص ١١ •

(٣٦) فقه اللغة وأسرار العربية للثعالبى ص ٢ « المقدمة » •

(٣٧) المخصص لابن سيدة ١/١٠ مطبعة بولاق طبعة سنة ١٣١٦هـ

بحسب المعانى والأغراض التى تدل عليها ، لا بحسب الحروف التى تتركب منها ، فتجمع الألفاظ المتصلة بمعنى واحد فى مكان واحد ، شأنه فى ذلك شأن من وافقه فى هذا المنحى متقدما عليه كما فى : «الغريب المصنف » لأبى عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ) ، وكتاب « الألفاظ » لابن السكيت (ت ٢٢٤هـ) .

وكتاب « الألفاظ الكتابية » للهمذانى (ت ٣٢٧ هـ) ، وكتاب « مبادىء اللغة » للاسكافى (ت ٤٢٠هـ) ، وكتاب « المخصص » لابن سيده الذى يعد أدقها ، وأحسنها تنسيقا ، وأكثرها استيعابا لمسائل هذا المبحث(٣٨) . وان كان قد تأخر عن الثعالبى فى تصنيفه هذا الفن .

ومن الكتب التى ألفت فى هذا الفن وجاءت متأخرة عن الثعالبى أيضا كتاب « نظام الغريب » لعيسى بن ابراهيم الربعى ، وكتاب « كفاية المتحفظ » لابن الأجدابى وغير ذلك :

وقد ظهر هذا النوع فى القرن الثالث الهجرى ، ثم استمر هذا العمل بعد ذلك قرونا ، وألف على نسقه علماء كثيرون (٣٩) .

والجدير بالذكر أن الثعالبى لم يعرض فى هذا القسم من كتابه للقضايا اللغوية العامة كالحديث عن اللغة ونشأتها ، وان عرض لشىء مما يمكن أن يدرج تحت التطور اللغوى مع وضوحه فى قصره فقه

---

(٣٨) راجع دراسات في المعجمات العربية د. ناجح مبروك ص ٢١ مطبعة الأمانة بمصر .

(٣٩) راجع : دراسات فى المعجمات العربية د. ناجح مبروك ص٢١

اللغة على دراسة الألفاظ اللغوية على ماهو واضح فى هذا القسم(٤٠)٠

وهو نمط معين من المعجمات ، لم يجمع فيه الألفاظ اللغوية المندرجة تحت موضوع واحد كما فعل أصحاب المعجمات الخاصه ككتاب « الخيل » أو « المطر » أو «الرجل » أو غيرها ، ولم يتناول اللغة باعتبار الترتيب الصوتى كما فعل الخليل فى « العين » ؛ ولا باعتبار الترتيب الألفبائى شأن معظم المعجمات ، وانما جمع الألفاظ مرتبة حسب موضوعات معينة اختارها ، دون أن يكون هناك أساس واضح لهذا الاختيار ٠

الثانى : أسرار العربية ، ومن النظرة العامة للموضوعات التى تضمنها هذا القسم يتضح لنا أنها موضوعات لدراسات خاصة عن اللغة العربية ، يحاول فيها اظهار الأمور والجوانب التى انفردت بها هذه اللغة ، وتوضح سنن العرب فى أساليبهم وطريقة التعبير ويتجه الى تأييد ذلك بما ورد من القرآن الكريم ، والشعر العربى القديم ، ومن ثم نجد الثعالبى يتعرض لموضوعات تمس البلاغة بأنواعها الثلاثة (البيان والمعانى والبديع) من ذلك كلامه عن الكناية وتوجيه الخطاب، وكلامه عن المدح الذى يراد به الذم ، فيجرى مجرى التهكم ، وكلامه عن التشبيه ، وعن الاستعارة ، والتجنيس والطباق ٠

ويتناول كذلك موضوعات وبحوثا أخرى تتصل بالنحو والصرف اتصالا وثيقا من ذلك كلامه عن الحرف ومعانيها ومواضعها وكلامه عن القلب والابدال ، وعن موضوعات أخرى لها علاقة وصلة بالدراسات الصوتية الخاصة من ذلك كلامه عن الاشباع ، وعن الخصائص من كلام

---

(٤٠) فقه اللغة د٠ عبده الرجحى ص ٥١ ٠

العرب الى غير ذلك من الدراسة المتنوعة للموضوعات اللغوية ، وهو فى تناوله لهذه الموضوعات يتناولها تناولا وسطا من ناحية الشرح والتوضيح بعيدا عن التعمق والتعقيد .

ويبدو واضحا جليا من خلال عرضه وتناوله لموضوعات هذا القسم أنه يريد أن يتبين ويوضح كيف تستعمل العرب أساليب معينة فى التعبير ، وهذا يظهر بوضوح فيما يستشهد به من النصوص والأساليب العربية(٤١) .

وعلى ذلك فمن الواضح أن الثعالبى قد جعل الهدف من تأليفه لكتابه هدفا تعليميا ، لأنه يقدم للمتأدبين الطرائق المختلفة لاستعمال الألفاظ ، ومع ذلك فان هذا النمط من التأليف المعجمى له أهمية فى الدرس اللغوى لأنه يوضح — بطريقته الوصفية — الخصائص التى تتسم بها اللغة موضوع الدرس من حيث اللفظة المفردة ومكانها فى الاستعمال، ولقد يدرسها المحدثون الآن تحت الدراسات الاسلوبية ، ويجعلها بعضهم خاصة بالمعاجم على اننا نلفت النظر الى أن الثعالبى لم يكن — فيما يبدو — يتحرى تقديم كتاب شامل فى هذا الموضوع ، لأنه يكتفى بايراد ألفاظ قليلة فى كثير من الموضوعات التى تناولها(٤٢) .

فالقسم الأول من « فقه اللغة وأسرار العربية » — أعنى فقه اللغة — للثعالبى كله بحث فى الألفاظ اللغوية على مستويات معينة .

أما القسم الثانى وهو الذى سماه « أسرار العربية » — وقد صرح هو بذلك فى مقدمة الكتاب حين قال : « وشفعته بسر العربية »

---

(٤١) فى فقه اللغة د. أحمد محمد سلامة ص ١٥٠ .

(٤٢) فقه اللغة د. عبده الراجحى ص ١٦٣ .

ـ انه أراد أن يجعل هذا القسم ملحقا للقسم الأول الذى هو هدفه الرئيسى من التأليف ، وكأنه نظر الى ابن فارس أيضا حين قرن « فقه اللغة » بسنن العربية ، أى أن هذا القسم لم يكن متطورا اليه على أنه من صلب الكتاب بدليل أنه لم يضمنه مقدمته التى فصل فيها الحديث عن أبواب القسم الأول فقط .

ومهما يكن من أمر ، فقد فصل هو بين « فقه اللغة » و « أسرار العربية » بقوله فى أوله : « القسم الثانى مما اشتمل عليه الكتاب وهو سر العربية فى مجارى كلام العرب وسننها والاستشهاد بالقرآن على أكثرها »(٤٣) .

وهذا القسم يشتمل على جوانب مختلفة من الدرس اللغوى مثل تلك التى رأيناها عند ابن فارس ، دون أن يكون بينها رابط ، ودون أن يكون هناك منهج يدرج موضوعاتها أقساما محددة ، ولكننا ـ على أية حال ـ نستطيع أن نميز فى هذا الفصل جوانب صوتية مختصرة جدا نجدها فى الفصل الذي كتبه عن الاتباع حيث قال : « هو من سنن العرب وذلك أن تتبع الكلمة الكلمة على وزنها ورويها اشباعا وتوكيدا واتساعا كقولهم جائع نائع(٤٤) . وساغب لاغب(٤٥) وعطشان نطشان(٤٦) .

---

(٤٣) فقه اللغة وأسرار العربية للثعالبى ص ٢٠٨ والمزهر للسيوطى ٤١٤/١ .

(٤٤) النائع : المتمايل .

(٤٥) جوعان أو عطشان . اللسان (سغب) .

(٤٦) أى ما به قوة . اللسان مادة (نطش) .

وضب ضب(٤٧) • وخراب يباب(٤٨) • وقد شاركب العرب العجم فى هذا الباب(٤٩) •

ولهذا يقول السيوطى : « انما سمى اتباعا ، لأن الكلمة الثانية انما هى تابعة للأولى على وجه التوكيد لها ، وليس يتكلم بالثانية منفردة فهذا قيل اتباع » •

فالفرق بينه وبين التأكيد أن التأكيد يفيد مع العقوبة تفى احتمال المجاز ، وأيضا فالتابع من شرطه أن يكون على زنة المتبوع ، والتأكيد لا يكون كذلك(٥٠) •

جوانب صرفية :

وذلك فيما كتبه عن أبنية الأفعال ، وفى المفعول يأتى بلفظ الفاعل ، والفاعل يأتى بلفظ المفعول(٥١) •

جوانب نحوية :

وتشمل الفصول التى خصصها للحروف بطريقة مختصرة جدا عن تلك التى قدمها ابن فارس ، ومن ذلك على سبيل المثال حديثه عن « أم » حيث قال : « أم » تقع موقع « بل » كما قال عز وجل : « أم يقولون شاعر » أى بل يقولون شاعر ، قال سيبويه : « أم »

---

(٤٧) هو الخداع المفسد (اللسان مادة خبب) •

(٤٨) البيان عند العرب الذى ليس فيه أحد (اللسان مادة ببب) •

(٤٩) فقه اللغة وأسرار العربية للثعالبى ص ٢٤٨ •

(٥٠) المزهر ١/٤١٥ •

(٥١) فقه اللغة وأسرار العربية للثعالبى ص ٢٤١ ، ٢٤٨ •

تأتى بمعنى الاستفهام كقوله تعالى : « أم تريدون أن تسألوا رسولكم » أى تريدون أن تسألوا رسولكم » والله أعلم(٥٢) .

وهكذا كان حديثه عن بقية الحروف .

وأخيرا جوانب بلاغية :

وتشمل ألوانا من ألوان البيان والمعانى والبديع ، حيث نجد حديثا عن التشبيه والاستعارة ، والمجاز والتجنيس والطباق(٥٣) الخ

على اننا نستطيع أن نفهم من هذا القسم انه أراد أن يعرض لبعض « الخصائص » أو « القوانين التى تتميز بها اللغة العربية فى استعمالاتها المختلفة .

مباحث تفرد بها الثعالبى :

بعد أن تبينا الاطار العام الذى يدور فى فلكه كتاب « فقه اللغة وأسرار العربية » للثعالبى من حيث الحديث عن طريقة عرضه وتناوله للمادة العلمية فى مصنفه ، وكذا الموضوعات التى عرض لها من ناحيتى « فقه اللغة » و « أسرار العربية » التى كانت بمثابة نقطة التلاقى بينه وبين ابن فارس فى كتابه « الصاحبى » ان لم تكن فى جميعها ففى معظمها ، بقى لنا بعد ذلك أن تعرض للعديد من الفصول التى تفرد بها الثعالبى ، وهى فى فنون مختلفة منها :

---

(٥٢) فقه اللغة وأسرار العربية للثعالبى ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤ .

(٥٣) المرجع نفسه ٢٥٦ ـ ٢٦٠ .

فى انحـــو :

ومن ذلك حديثه عن : اضافة الاسم الى الفعل ، جمع الفعل عند تقـــدمه على الاسم ، اجراء الاثنـــين مجرى الجمـــع ، تذكير المؤنث وتأنيث المذكر ، الجمع الذى ليس بينه وبين واحده الا الهاء ، اضافة الشىء الى صـــنعته(٥٤) .

وفى البلاغة :

ومن ذلك : اقامة الانسان مقام من يشبهه وينـــوب منابه ، فى التشبيه يغير أداة التشبيه ـــ التجنيس ـــ الطباق(٥٥) .

وفى اللغـــة

ما يذكر ويؤنث ، اقامة العم مقام الأب والخالة مكان الأم ، فى الريح والمطـــر(٥٦) .

وفى الصرف :

اشتقاق نعت الشىء من اسمه عند المبالغة فيه التصغير(٥٧) .

---

(٥٤) فقه اللغة وأسرار العربية للثعالبى ص ٢٠٩ ، ٢١٣ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٥٥ .

(٥٥) المرجع نفسه ص ٢٣٧ ، ٢٤٣ ، ٢٥٨ .

(٥٦) المرجع نفسه ص ٢١٦ ، ٢٤٤ ، ٢٥٠ .

(٥٧) المرجع نفسه ص ٢٥٥ .

وفى النحو والبلاغة معا :

اضافة الشىء الى الله جل وعلا(٥٨) .

وفى اللغة والصرف :

جمع الجمع(٥٩) ، وهى على أى حال قليلة المادة والفائدة .

« الصاحبى » وفقه « اللغة » فى الميزان :

بعد هذا العرض الشامل لكتابى « الصاحبى » لابن فارس و «فقه اللغة وأسرار العربية » للثعالبى ، يتبين لنا أن الثعالبى فى كتابه « فقه اللغة وأسرار العربية » — أعنى القسم الثانى منه — قد اعتمد على كتاب « الصاحبى » لابن فارس — أحيانا — اعتمادا كبيرا ، حتى انه نقل عنه أبوابا بأكملها لم يغير عنوانيتها ؛ ولا المادة التى تحتويها ، من أمثلة ذلك : « فصل فى اضافة الشىء الى من ليس له لكن أضيف اليه لاتصاله به(٦٠) ، وفصل فى الاشباع والتوكيد(٦١) وفصل فى النحت(٦٢) ، وفصل فى أفعل لا يراد به التفضيل(٦٣) ، وغير ذلك كثير ومن الموازنة بين تلك الأبواب من الكتابين يتبين لنا أن الأبواب التى وقع فيها التشابه والتقارب قد زادت على الثلاثين

---

(٥٨) المرجع نفسه ص ٢٤٠ .
(٥٩) المرجع نفسه ص ٢١٩ .
(٦٠) فقه اللغة للثعالبى ص ٢٥٣ والصاحبى ٤٠٧ .
(٦١) الصاحبى ٤٦٢ وفقه اللغة للثعالبى ٢٥٣ .
(٦٢) الصاحبى ٤٦١ وفقه اللغة للثعالبى ص ٢٥٣ .
(٦٣) الصاحبى ٤٣٤ وفقه اللغة للثعالبى ٢٥٢ .

بابا ، وكان ورودها متناثرة فى « الصاحبى » على حين وردت فى كتابه « فقه اللغة وأسرار العربية » للثعالبى على طريق السرد والتتابع وكذا المنهج يكاد يكون متفقا فى الكتابين ، وأن الغرض والهدف من كل منهما واحد ، بل اننا نجد أن الثعالبى يكاد يكرر فى صدر كل موضوع من موضوعات كتابه هذه العبارة وهى : « من سنن العرب تقول ... الخ » وهو فى هذا يسير على هدى ابن فارس ويحتذى حذوه فى كتابه « الصاحبى »(٦٤) .

وتوضيحا لما ذكرت من نقل الثعالبى لأبواب كاملة من كتاب « الصاحبى » لابن فارس دون أن يغير شيئا منها حتى عناوينها،أذكر بعض تلك الأبواب حتى نكون على بينة مما نقول :

فمن ذلك ما قاله ابن فارس فى باب الاشباع والتأكيد : « تقول العرب : « عشرة وعشرة فتلك عشرون ، وذلك زيادة فى التأكيد،ومنه قوله جل ثناؤه « فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة اذا رجعتم تلك عشرة كاملة »(٦٥) وانما قال هذا النفى احتمال أن يكون أحدها واجبا : اما ثلاثة وأما سبعة ، فأكد وأزيل التوهم بأن جمع بينهما .

ومن هذا الباب قوله جل ثناؤه : «ولا طائر يطير بجناحيه»(٦٦) انما ذكر الجناحين لأن العرب قد تسمى الاسراع طيرانا ، قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « كلما سمع هيعة طار اليها » .

---

(٦٤) فى فقه اللغة د. احمد سلامة ص ١٥١ بتصرف .

(٦٥) الصاحبى ص ٤٦٣ .

(٦٦) من الآية ٣٨ من سورة الأنعام .

وكذلك قوله : « يقولون بألسنتهم »(٦٧) فذكر الألسنة لأن الناس يقولون : « قال فى نفسه كذا » قال جل ثناؤه : « ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول »(٦٨) • فاعلم أن ذلك باللسان دون كلام النفس(٦٩) •

ومثله تماما ما قاله الثعالبى فى كتابه « فقه اللغة وأسرار العربية »(٧٠) دون أن يغير لفظا منه •

ومن ذلك أيضا قول ابن فارس فى باب النحت حيث يقول : « العرب تنحت من كلمتين كلمة واحدة وهو جنس من الاختصار وذلك « رجل عبشمى » منسوب الى اسمين ، وأنشد الخليل :

أقول لها ودمع العين جار ألم تحزنك حيعلة المنادى

من قوله : « حتى على » •

وهذا مذهبنا فى أن الأشياء الزائدة على ثلاثة أحرف فأكثرها منحوت ، مثل قول العرب للرجل الشديد : « صنبطر » من « ضبط » و « صنبر » •

وفى قولهم : « صهصلق » انه من « صهل » و « صلق » • وفى

---

(٦٧) من الآية ١١ من سورة الفتح •

(٦٨) من الآية ٨ من سورة المجادلة •

(٦٩) الصاحبى لابن فرس ص ٤٦٢ •

(٧٠) فقه اللغة وأسرار العربية للثعالبى فصل فى الاشباع والتأكيد ٢٥٣ بنصه •

« الصـــدم » انه من الصـــلد من « الصـــلد » و « الصـــدم »(٧١) وبمثله قال الثعالبى(٧٢) •

فمن خلال ما ذكرنـــاه من نماذج متحـــدة الأبواب فى كـــل من الكتابين يتضح لنا أن الثعالبى تناول طائفة من المباحث المختلفة اعتمد فى بعضها على كتاب « الصاحبى » لابن فارس اعتمادا كاملا باستعار عناوينه ومادته وشواهده ، ومع ذلك فقد كان يلجأ الى صـــنوف من التصرف ، بالحذف أحيـــانا ، وباضافة شـــواهد أو تغييرها أحيـــانا أخرى ، وقد يعيد توزيع المادة العلمية تحت عناوين جديدة(٧٣) ومن صـــور التصرف عنده ما يلى :

(أ) أن ما بحثه ابن فارس بعنـــوان : « أجناس الـــكلام فى الاتفاق والافتراق ، وقد ذكر لذلك الوجـــوه التالية : اختـــلاف اللفظ والمعنى ـــ اختلاف اللفظ واتفاق المعنى ـــ العكس ـــ اختلاف اللفظين وتقارب اللفظين واختلاف المعنيين وغير ذلك • أخـــذ الثعالبى بعضه موزعا على فصول فى تقارب اللفظين واختلاف المعنيين ـــ فى وقـــوع فعل واحد على عدة معان ـــ فى وقوع اسم واحد على أشياء مختلفة ـــ فى تسمية المتضادين باسم واحد(٧٤) •

---

(٧١) الصاحبى لابن فارس ص ٤٦١ •

(٧٢) راجع فقه اللغة للثعالبى فصل فى النحت ص ٢٥٣ •

(٧٣) فقه اللغة د• محمد أحمد خاطر ص ٥٠ •

(٧٤) فقه اللغة للثعالبى ص ٥٤٥ وغيرها •

(ب) ومما أخذه عنوانا ومادة مع حذف كلمة أو جملة ، أو شاهد أو اضافة شيء من ذلك نادرا فصول منها :

نفى الشيء جملة من أجل عدم كمال صفته ــ القلب ــ الأنباع ــ اخراج الشيء المحمود بلفظ يوهم ضد ذلك الشيء يأتي بلفظ المفعول مرة،وبلفظ الفاعل مرة والمعنى واحد ، اجراء غير بني آدم مجراهم في الاخبار عنهم ، اقتصارهم على بعض الشيء وهم يويدونه كله . وغير ذلك من الأبواب .

ولنذكر أن الثعالبي استعمل عبارة « ومن سنن العرب » كثيرا في القسم الثاني من كتابه ــ أعني أسرار العربية ــ وهي عبارة ابن فارس وشطر عنوان كتابه الذي هو : « الصاحبي في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها » .

ومع ذلك فان هناك فرقا واضحا بين منهج ابن فارس في كتابه والثعالبي في القسم الأول من كتابه ــ أعني فقه اللغة ــ فالثعالبي لم يعرض للقضايا اللغوية العامة كالحديث عن اللغة ونشأتها وان عرض لشيء مما يمكن أن يدرج تحت التطور اللغوي مع وضوحه في قصره فقه اللغة على دراسة الألفاظ اللغوية فهو لم يتناول اللغة باعتبار الترتيب الصوتي كما فعل الخليل بن أحمد في ترتيبه لكتابه العين وهو رائد مدرسة التقليبات الصوتية ومبتدعها في القرن الثاني الهجري كما هو معروف ومعلوم ، ولا باعتبار الترتيب الألفبائي شأن معظم المعجمات اللفظية الجامعة لألفاظ اللغة بطريقة حاصرة الشارحة لمعانيها،

---

(٧٥) فقه اللغة العربية د. محمد أحمد خاطر ص ٥٠ ــ ٥١ .

وهذا النوع من المعجمات يحتاج اليه من يعرف الألفاظ ، ويرغب فى الوقوف على مدلولاتها ومعانيها ، وانما جمع — أى الثعالبى — الالفاظ مرتبة حسب موضوعات معينة اختارها دون أن يكون هناك أساس واضح لهذا الاختيار ، شأنه فى ذلك شأن أصحاب المعجمات الخاصة بالمعانى والموضوعات ، وعلى رأسهم « المخصص » لابن سيده •

تعقيب :

انه اذا كان الثعالبى قد اعتمد فى بعض المباحث من كتابه « فقه اللغة وأسرار العربية » — وأعنى بذلك أسرار العربية — على كتاب « الصاحبى » لابن فارس ، مع أن هناك اتفاق بينهما فى الطريقة والمنهج ، وأن ما سماه الثعالبى فى أول كتابه بفقه اللغة ، ليس من فقه اللغة فى شىء بل هو من المعجمات الموضوعية والمعنوية ، وأن أسرار العربية عند الثعالبى تقابل سنن العرب فى كلامها عند ابن فارس وأن فقه اللغة عند ابن فارس بالمعنى الذى انتهينا اليه من الحديث عن لغة العرب أتوفيق أم اصطلاح ، والقول فى أن لغة العرب أفضل اللغات وأوسعها وغير ذلك ، لا وجود له فى كتاب الثعالبى، فليس معنى ذلك أن الثعالبى قد أخذ « أسرار العربية » من الصاحبى أخذا تاما كما أشار الى ذلك بعض أساتذتى الأجلاء(٧٦) •

نحن لا ننكر انه قد نقل بعض الفصول ، واستعار بعض العناوين والشواهد ، الا أنه فى أحيان كثيرة كان يلجأ الى صنوف من التصرف ، بالحذف أحيانا ، وباضافة شواهد أو تغييرها أحيانا أخرى ، وقد يعيد توزيع المادة العلمية تحت عناوين جديدة ، هذا

---

(٧٦) أ•د• محمد أحمد خاطر فى كتابه فقه اللغة العربية ص ٥٠ •

بالاضافة الى تفرده بفصول جديدة لم يعرض لها ابن فارس فى كتابه « الصاحبى » .

واذا كان الثعالبى قد خالف ابن فارس فى كل هذه الأمور ، فليس من الانصاف أن يقال عنه انه أخذ « أسرار العربية » من كتاب « الصاحبى » وانما هذا يمثل لونا من التأثر الفكرى الناشىء عن تبادل الصلات التاريخية ، خاصة وأن الفترة الزمنية بينهما لا تتجاوز الأربعة والثلاثين عاما ، أو ربما كان هذا تشابها مبعثه أفكار العصر العامة ، بالاضافة الى التوافق فى الطريقة والمنهج بينهما وقد عده بعض الباحثين من سمات التأثر(٧٧) ومع كل هذا:فاننا نرى الثعالبى يقدم لنا فى كتابه دراسات طريفة فى اللغة العربية ، مؤيدة ومدعمة بالشواهد من القرآن الكريم ، والمختار من الشعر العربى الرصين ، وثراء يتناول مسائل مختلفة الأنواع ، متعددة الاتجاهات يجمعها جميعا بيان خصائص اللغة العربية وحدها ، ومن ثم فاننا نرى للكتاب فائدة جليلة فى تقويم اللسان واتباع الاسلوب العربى الفصيح والصحيح ، وتربية وتنمية ملكة الأخذ عن الصحيح البليغ من الاستعمالات اللغوية .

وان القارىء للقسم الثانى من الكتاب أسرار العربية — يجد فيه أنسا كثيرا وراحة كبيرة لطرافة موضوعاته ، ويلتمس فيه أسلوبا بليغا يمكن أن يتبعه كما يجد فيه سهولة ويسرا حيث يتناول الثعالبى فيه

---

(٧٧) دراسات فى الأدب المقارن د. محمد عبد المنعم خفاجى ٢/٨٩

موضوعاته فى خفة ورشاقة ، وجمال وروعة ، ونجده يبتعد فيه عن تعقيدات القواعد ، ومن ثم فان هذا الكتاب يعد محاولة من المحاولات الطيبة ،وجهدا من جهود علمائنا الأسبقين فى مجال الدراسات اللغوية ، فجزاه الله عنا خير الجزاء .

هذا وبالله التوفيق ...

اعداد

الدكتور / حسن سيد غرغلى

المدرس فى قسم أصول اللغة

فى الكلية

ثبت بأهم المصادر والمراجع

١ ـ أصوات اللغة العربية د٠ عبد الغفار حامد هلال مطبعة الحلاوى بمصر الطبعة الثانية سنة ١٩٨٨م ٠

٢ ـ انباه الرواة على أنباه النحاة للقفطى تحقيق / محمد أبى الفضل ابراهيم طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٥٢م ٠

٣ ـ البحث اللغوى عند العرب د٠ أحمد مختار عمر الطبعة السادسة مطبعة عالم الكتب بيروت ٠ طبعة سنة ١٩٨٨م ٠

٤ ـ حضارة العرب تأليف / غوستاف لوبون ترجمة د٠ عادل زعيتر طبعة سنة ١٩٤٨م ٠

٥ ـ حضارة الهند تأليف / غوستاف لوبون ترجمة د٠ عادل زعيتر طبعة ١٩٤٨م ٠

٦ ـ دراسات فى الأدب المقارن د٠ محمد عبد المنعم خفاجى مطبعة دار الطباعة المحمدية بمصر من دون تاريخ طبع ٠

٧ ـ دراسات فى اللغة د٠ كمال محمد بشر مطبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٩م ٠

٨ ـ دراسات فى المعجمات العربية د٠ ناجح عبد الحافظ مبروك مطبعة الأمانة بمصر طبعة أولى سنة ١٩٨٧م ٠

٩ ـ دلالة الألفاظ د٠ ابراهيم أنيس ٠ المطبعة الفنية الحديثة / مكتبة الأنجلو بمصر سنة ١٩٧٦م ٠

١٠ ـ شرح المحلى على جمع الجوامع وحاشية البنانى عليه ٠ مطبعة عيسى البابى الحلبى ٠

١١ ـ الصاحبى لابن فارس تحقيق / السيد أحمد صقر ٠ مطبعة عيسى البابى الحلبى بمصر طبعة سنة ١٩٧٧م ٠

١٢ ـ فقه اللغة العربية د٠ أحمد محمد سلامة ٠ الطبعة الأولى سنة ١٩٨٨م ٠

١٣ ـ فقه اللغة فى الكتب العربية د٠ عبده الراجحى ، مطبعة دار النهضة الحديثة ـ بيروت ٠ طبعة سنة ١٩٧٢م ٠

١٤ ـ فقه اللغة وأسرار العربية للثعالبى منشورات مكتبة الحياة بيروت

١٥ ـ فقه العربية تمهيد فى التأريخ والتأليف د٠ محمد أحمد خاطر الطبعة الأولى ٠ مطبعة دار الطباعة المحمدية بمصر سنة ١٩٨٢م ٠

١٦ ـ لسان العرب لابن منظور طبعة دار المعارف بمصر ٠

١٧ ـ المخصص لابن سيده ٠ مطبعة بولاق سنة ١٣١٦هـ ٠

١٨ ـ المزهر للسيوطى تحقيق / محمد على البجاوى وآخرين مطبعة عيسى البابى الحلبى بمصر دون تاريخ طبع ٠

١٩ ـ المصباح المنير للفيومى تحقيق المرحوم الدكتور عبد العظيم الشناوى مطبعة دار المعارف بمصر طبعة سنة ١٩٧٧م ٠

٢٠ ـ معجم الأدباء لياقوت الحموى ٠ مطبعة دار المأمون بمصر سنة ١٩٣٦م ٠

٢١ ـ يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر للثعالبى تحقيق / محمد محيى الدين عبد الحميد ٠ مطبعة السعادة بمصر ٠ الطبعة الثانية سنة ١٩٥٦م ٠